كتابة: عبدالرزاق محمد بيمار
ترجمة وإفاضة وتعليق: محمد الملا عبدالكريم

● الدراسات الأدبية:

# الشـــيخ رضا الطالبانى

## في جريدة «الرقيب» البغدادية

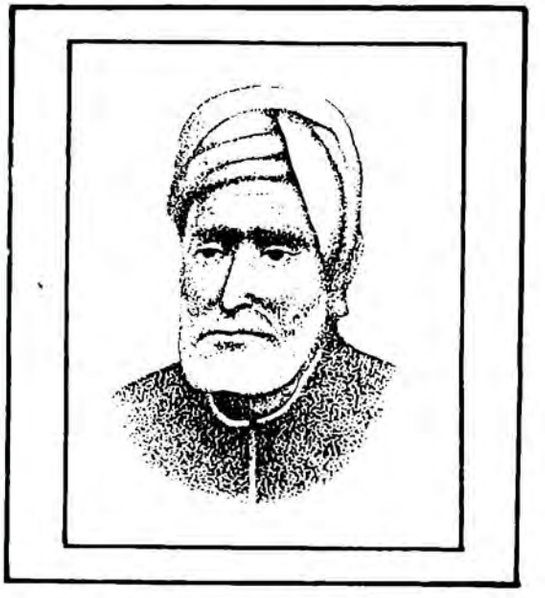

حدد الكتاب الأوائل الذين كتبوا عن الشاعر العالي القدر ، الخفيف الظل ، الشيخ رضا الطالباني، سنة وفاته ، خطأً ، على أنها السنة ١٩٠٩ الميلادية[١] . ولكن الأساتذة الباحثين سون والدكتور كمال مظهر أحمد وحمه بور وأحمد تاقانه اهتموا . فيما بعد ، بتصحيح ما وقع فيه أولئك من خطأ في التحديد . والأساس الذي استند اليه الرأي العام الذي تكون حول التحديد المشار اليه لسنة الوفاة هذه ، هو ما نقش على شاهد قبر الشاعر ، الواقع في مقبرة الشيخ عبد القادر الكيلاني بباب الشيخ ببغداد من أنه «توفي هذا الفاضل المرحوم في ليلة الجمعة المباركة من محرم الحرام سنة ١٣٢٨»[٢] .

اعتبر الاستاذ الفاضل الدكتور كمال مظهر في بحث له منشور بالعدد الأول من مجلة المجمع العلمي الكردي الصادر في السنة ١٩٧٣ ، وهو على صواب فيما ذهب اليه ، أن هذه السنة تقابل السنة ١٩١٠ الميلادية[٣] . أما بشأن تحديد يوم وفاته . فقد ذكر ، اعتمادا على ما ذهب اليه الأستاذ محمد أمين زكي في كتابه (مشاهير الكرد) ، أن يوم وفاة الشاعر هو أول محرم الحرام ، وهو أيضا للدكتور كمال مظهر – يرى أن هذا التأريخ يصادف مساء يوم الخميس الثالث عشر من كانون الثاني ١٩١٠[٤] .

أما أنا فقد تمكنت ، لحسن حظي . من أن أخطو بتحقيق الموضوع خطوة أخرى الى أمام ، وتوصلت الى تحديد اليوم الصحيح لرحيل الشيخ الطالباني . فقد كنت في بعض الأيام في زيارة للمكتبة الوطنية ببغداد . وهناك وردت بخاطري فكرة البحث عن بعض الصحف الصادرة في العهد العثماني ، في العامين ١٩٠٩ و ١٩١٠ ، لعلي أجد في احداها دليلا جديدا يرشدني الى الصواب في هذا الشأن ، فقد كنت أعتقد أن رجلا في منزلة الشيخ رضا الطالباني لم يعش في بغداد مواطنا مغمورا أو شخصا منزويا منعزلا عن المجتمع . فقد كان ملء الألسن والأعين ، معروفا بالقدر الذي تسمح به ظروف الوسط البغدادي آنئذ . ما يقتضي أن يكون لنعيه في بغداد صدى في صحافتها . وقد وجدت بغيتي في ما ذهبت اليه .

أخذت أتصفح في قسم الجرائد والمجلات القديمة من المكتبة الأعداد المجلدة من جريدة (الرقيب) التي أصدرها في ذينكما العامين المشار اليهما المرحوم عبد اللطيف

ثنيان باللغة العربية ، وفيها كذلك بعض المواد باللغة التركية[٥] . وبعد البحث والتنقيب وجدت أن الجريدة المذكورة نشرت لأول مرة ، في العدد ٨٢ منها الصادر في تاسع محرم الحرام من العام ١٣٢٨ للهجرة الموافق لسابع كانون الثاني من العام ١٣٢٥ الرومي ، خبرا عن مرض الشيخ رضا ، اليكم فيما يلي نصه :

«لقد أسفنا - يعز علينا - كل الأسف . لما بلغنا من مرض جناب الفاضل الأديب الذي سارت بذكر فضائله ورصانة أشعاره الركبان ، الشيخ رضا أفندي الطالباني ، مرضا أصابه برجليه فأقعده وآلمه . فنسأل الله له من صميم القلب سرعة الشفاء ، وجعل ما ناله من ذلك تمحيصا لما يحتمل وقوعه من الذنوب من مثل هذا الفاضل ، وجزى الله كل خير من أمّن على دعائنا هذا وأعاننا بقول آمين» .

ولكن الاستجابة للدعاء المذكور لم تتحقق . وهكذا نشرت الجريدة المذكورة في عددها التالي ، العدد ٨٣ ، الصادر في الثاني عشر من محرم الحرام ١٣٢٨ الموافق للعاشر من كانون الثاني ١٣٢٥ نبأ وفاة الشيخ ومواراته الثرى ، فكتبت السطور الآتية :

«قد استأثرت رحمة الله بالفاضل الأديب والشاعر اللبيب ، الذي كان يعد وجوده فلتة من فلتات الزمن الذي عقمت عن مثله الأيام منذ زمن[٦] ، الشيخ رضا أفندي الطالباني ، عصر الخميس عند قول المؤذن «الله أكبر» توفاه الله عن عمر ناهز السبعين قضاه في التحصيل والأدب . فأما نظمه في اللغات الأربع عربية وتركية وفارسية وكردية . فهو الذي قد سارت به الركبان ، وتناقلته الألسن لسلاسته ورقته . حتى أني أذكر اعتراضي عليه رحمه الله في عدم تدوينه اياه ، فأجاب بالواقع بأن ديوان صدور الرجال لا بطون الدفاتر . وقد احتفل العموم احتفالا يليق بنعش الفقيه ، ووارود جدثه في مقبرة الشيخ عبد القادر الكيلاني قدس سره ، ضحوة الجمعة ، وأقيمت له تعزية حافلة في زاويته (تكيه) الواقعة في الميدان . فنسأل الله له العفو والمغفرة والرضوان ، ولحضرة كل من اخوانه وأنجاله وعائلته الصبر لينالوا الأجره .

والآن ، وقد أعدنا نشر ما كتبته (الرقيب) عن مرض الشيخ الشاعر ووفاته ، نصا ، نود الاشارة الى أن الجريدة وصفت مرضه بأنه «مرض أصاب رجليه فأقعده وآلمه» ، في حين أن ورد في مقدمة الطبقة الثانية لديوانه ، الصادرة في العام ١٩٤٦ ، أن ، رحمه الله ، «توفي من الاصابة بالزحار «الدزانتري»[٧]» . ولسنا ندري على أي الخبرين المعوّل في تقرير السبب الصحيح لوفاته .

يتضح من نعي الشاعر المنشور في جريدة (الرقيب) أنه لم يتوف في الأول من محرم الحرام كما قيل ، بل في عصر يوم الخميس التاسع منه ، وأن دفنه جرى في ضحوة يوم الجمعة العاشر منه من العام ١٣٢٨ للهجرة . وهذان اليومان يوافقان العشرين والحادي والعشرين من كانون الثاني ١٩١٠ ميلادية . واذا صح ما ذكرته الجريدة من أنه «توفاه الله عن عمر ناهز السبعين» ، اختلفت سنة ميلاده ايضا عما قيل بشأنها وغدت السنة ١٢٥٨[٨] . (غير أن ما ورد في الجريدة من أنه «توفاه الله عن عمر ناهز السبعين» يمكن أن لا يبلغ من الدقة ما كتبه الأستاذ فتح الله اسعد الكولي الذي كتب مقدمة الطبعة الثانية لديوان الشاعر[٩] . فهو ، فضلا عما عرف به من أدب وثقافة ، كان علامة معروفا في علم الأنساب ، وقريبا من الأسرة الطالبانية . ولذلك فمن المحتمل أن يكون الشيخ الشاعر عاش أكثر من سبعين عاما[١٠] .

ولم يتوقف اهتمام جريدة (الرقيب) البغدادية بالشيخ رضا عند حد نشر نبأ مرضه ووفاته ، بل استمر فيها بعد أيضا ، رغم أني لا أستبعد أن الشيخ لم يكن على وفاق مع الجريدة أو صاحبها في التحيز السياسي والفكر الاجتماعي . فمن المعروف أن هذه الجريدة كانت تساند بكل قوة الشكل الذي آلت اليه الدولة العثمانية في الفترة الأخيرة من حياة الشيخ وتساند القانون الأساسي وفكرة التجديد الاجتماعي والسياسي ، في حين أن الشيخ رضا كان يرى في القانون الأساسي أضغاث أحلام ، وأن النظام الوحيد الذي يرضى الله تعالى عنه هو الشريعة الاسلامية والعدالة التي يطبقها الخليفة ورجال الدين ، بل انه هاجم في رباعية له باللغة التركية القانون الأساسي العثماني ، واليكم فحوى الرباعية :

مسكينة هي العدالة لأن بناءها قد انهار
وألقى عليها القانون الأساسي حتى آخرها .
ما دام هناك قانون آلهي هو الشريعة .
فالقانون هذيان سواء السياسي منه والأساسي[١١]

ومع ذلك فان المنزلة الاجتماعية ومستوى الشاعرية والمشيخة والتدين عند الشيخ رضا كانت مما جعلته معروفا على نطاق بغداد كلها . فقد كان يجالس علية القوم فيها ، ولذلك فاضافة الى اهتمام الجريدة بنبأ مرض الشيخ ووفاته ، نشرت أيضا قصيدة ومقطوعة شعرية نظمها اثنان من شعراء العربية ، في حين لم يرثه أي شاعر كردي على ما نعلم .

نشرت (الرقيب) القصيدة الرثائية في عددها التسعين الصادر في السابع من صفر الخير ١٣٢٨ هجرية الموافق للرابع من شباط ١٣٢٥ رومية ، وهي بتوقيع (خطيب زاده : عطاء الله)[١٢] ، وقد صدرتها بالمقدمة التالية :

«وصلتنا هذه الأبيات لناظم عقدها الفاضل صاحب الامضاء في رثاء المرحوم المغفور له الشيخ رضا الطالباني ، فآثرنا درجها تخليدا لذكر الفقيد ، ونشرا الوفاء الناظم جزاه الله خيراه .

وهذه هي القصيدة :

اترضى المعالي أن تناح سواها
وقد علمت أن الفقيد رضاها
أم الصبر هل يقضي بحسن اصطبارنا
وأنفاس محياه الرضاء قضاها
قضى نحبه والمكرمات تحفة
وتبكيه ، لكن ما أفاد بكاها
وكم بكت العلياء ترجو فداءه
وهيهات لم يعطى البكاء مناها

قضي حبه أيام عشر محرم
غريبا وحيدا مثل أهل عباها
فلا ابن يسبيه الشرابَ ، ولا أخا
ولا بنت تجلو همه بصباها
فتبا لدنيا لاثبات لها ، ولا
وفاء ، ولا يرجى البقا بحماها
وطوبى لأرض قد حوت منه أعظما
بها طالما الدهر الحزون تباهى
وطوبى لقبر قد حوى العلم والتقى
وأصناف فضل لم تكن تتناهى
وطوبى لقبر حل منزلة الرضا
أخو العلم من للمكرمات حواها
لطيف ، رقيق القلب ، شفاف طبعه
لقد كان من عين الكمال جلاها
فكم عالجت يمناه مرضى ضلالة
فما مسها الا استرد هداها
وكم مدنف أشفت من الجهل نفسه
فرد بآيات القريض شفاها
وكم كبد حرى شكت من أوارها
رواها بأبيات اليه رواها
فلو رقموا يوما على الطور نظمه
لكنت ترى الطور استحال مياها
فصيح ترى الحر البليغ أمامه
كمعدوم نطق لا يلم شفاها
كليم ، وأقلام المعاني عصيّهُ
متى هزها تلفُ الرجال شياها
كأن القو في كنّ في أسر نطقه
تدحرج أنى شاء حيث أتاها
فلو لطمت عشر العقول بعشرها
على مثله حزنا يحق أساها
ولو رأت الخنساء بعض فعاله
لما ادكرت من بعد ذاك أخاها
فلا كل مفقود من الحر مؤلم
ولا كل نار يهتدى بسناها
ولا كل مغمور يجفن مهندا
ولا كل عضب للكماة وقاها
كل ذي جاه عريض بسيد
ولا كل من ساد الرجال حماها
ولا كل مفقود يناح لفقده
ولا كل ذات تفتدي بسواها
لمثل الرضا تجري الجفون نجيعها
لمثل الرضا تغني العيون ضياها
لمثل الرضا تفري الخوادر جيبها
لمثل الرضا تدمي الأسود جباها
لمثل الرضا في الكون تجري مآتم
لمثل الرضا تهوى النفوس أذاها
لمثل الرضا يستصعب الحر صبره
لمثل الرضا تجفو الكرام كراها
حباه آله العالمين جنانه
ولا زال مسرورا بصحبة طه

أما المقطوعة الشعرية فهي للسيد مهدي البغدادي من النجف ، وقد نشرتها (الرقيب) في عددها الخامس والتسعين الصادر في ٢٤ صفر الخير ١٣٢٨ هجرية الموافق لـ ٢١ شباط ١٣٢٥ رومية ، وصدرتها بالمقدمة التالية :

«وصلتنا من النجف الأشرف هذه الأبيات للفاضل صاحب الامضاء في رثاء المرحوم المبرور الشيخ رضا افندي الطالباني . فتخليدا لذكرى المصيبة بالفقيد وتنويها بفضل الناظم وشحنا بها أعمدة (الرقيب) .

وهذه هي الأبيات :

قولوا لأطناب العلوم قوضي
هذا الرضا وهو العماد قوضا
من للعلوم الغر يبدي ما خفي
منها بفكر يسبق السيف مضا
من للقوافي اللؤلؤيات التي
كانت نجوم جبية الدهر وضا
أصبح وجه الدهر وهو أسود
وكان وجه الدهر فيه أبيضا
جوهرة لم يحتملها الدهر أن
تبدو ، فضمها لقلبه القضا
فللقضا أجاب في رواحه
«أرخ لربه وفاه برضاه .
١٣٢٨

وهكذا فان جريدة (الرقيب) وشاعرين عربيين اثنين قدروا شاعرا كرديا عظيم الشأن حق قدره . ولا يستبعد ان كان هناك من أبنه ورثاه عدا هؤلاء . وكل تلك علامات نيرة مضيئة لموقف تقديري وتقييم متكامل لدور الشعر والعلم والابداع استحقه شيخنا الشاعر حق الاستحقاق . بل وأكثر من ذلك .

الترجمة مع شيء من التصرف
(عن جريدة «هاوكارى»)

## مراجع البحث :


١ – جريدة الرقيب لصاحبها عبد اللطيف ثنيان ، بغداد ، ١٩١٠

٢ – صفحات من تأريخ الشعب الكردي ، الدكتور كمال مظهر احمد ، بغداد ، ١٩٨٥ (باللغة الكردية)

٣ – ديوان الشيخ رضا الطالباني ، جمع الشيخ علي الطالباني ، بغداد ، ١٩٤٦

٤ – العدد الصادر بتأريخ ١٩٧٨/٣/٢٧ من جريدة العراق ، مقال بعنوان «تصحيح الخطأ في تأريخ وفاة الشاعر الكردي الشيخ رضا الطالباني» بقلم محمد مصطفى حمه بور .


## الهوامش

(١) لمزيد من المعلومات حول هذا الموضوع ، راجع مقال : (صيانة التراث الكردي من خلال عمل المجمع) . الصفحات ٣٨٠ – ٤١٨ من القسم الأول من المجلد الأول من مجلة المجمع العلمي الكردي ، بغداد ، ١٩٧٣ ، وبالتحديد الصفحات ٣٨٦ – ٣٩٣ منه .

(٢) المصدر السابق . ولاحظ أيضا الصورة المنشورة مع هذا المقال . ويتضح من حقيقة وجود ما يدل على تأريخ وفاة الشاعر بالسنة الهجرية منذ الأيام الأولى لوفاته ، وهو الكتابة المنقوشة على شاهد ضريحه ، أن خطأ الذين حددوا تأريخ الوفاة بالسنة الميلادية ناتج من عدم وجود مقياس دقيق لديهم لمقارنة السنوات الهجرية بالسنوات الميلادية .

(٣) يستند الباحث المذكور في هذا التحديد الى (جدول تحويل السنوات الهجرية الى سنوات ميلادية) للمستشرق السوفيتي ي . أ . أوربيللي . وقد ترجم هذا الجدول الى العربية من قبل الدكتور حسين قاسم العزيز ، ونشر في العددين الثالث والرابع من المجلد الثالث للعام ١٩٧٤ من مجلة (المورد) التي تصدر من قبل وزارة الاعلام .

(٤) المصدر المذكور في الهامش الأول ، الصفحتان ٣٨٨ – ٣٨٩ .

(٥) بعد أن اطلعت على مقال الأخ عبد الرزاق محمد بيار منشورا في العدد ١١٦٩ من جريدة (هاوكاري) الكردية وعقدت العزم على ترجمته للعربية ، وجدت من الضروري اضافة المرثيتين الشعريتين اللتين نظمتا في رثاء الشيخ الطالباني ، الى الترجمة العربية اتماما للفائدة ، فكان عليّ أن أطلع بنفسي على جريدة (الرقيب) التي نشرت المرثيتين ، فتوجهت الى المكتبة الوطنية ببغداد لهذا الغرض . وما أن ناولني الأخت المناوبة مجلدي الجريدة الموجودين هناك وجلست أتصفحهما حتى وجدتني أرثي لحال صحافتنا القديمة في دواليب المكتبات العامة . فقد وجدت اضافة الى سوء التجليد وسوئيته المفرطة مما جعل أصفدة الجريدة الواقعة في كعوب الصفحات صعبة القراءة ان لم تكن مستحيلتها ، لأن محيط المجلد قد حز في أسافل الأوراق بشكل تجاوز بدايات وخواتيم السطور وأدخلت فيها الخيوط الغليظة الأنيق بخياطة جلال الحمير منها بربط أجزاء الكتب – وجدت أيضا أن كثيرا من الصفحات لم تدخل في سياق عملية (الخياطة) أصلا ، وغيرها تمزقت شر تمزق . ورقعت هنا وهناك بأشرطة لاصقة فقدت قوة لصقها وجفت بمرور الزمن وتركت على مواضعها من ورق الجريدة المنير الاصفر الردئ في ذاته ، آثارا يضيف مزيدا من الصعوبة الى قراءتها . وقد تساءلت في نفسي عما اذا كانت ادارة هذه المكتبة فكرت أو لا في تصوير الجرائد القديمة الموجودة في خزاناتها على رقوق الميكرو فيلم ووضعها في متناول القراء بيده الطريقة دون أن تضع بين أيديهم المجلدات الممزقة فيزيدوها بتكرار تقليبها تمزيقا على تمزيق ، بل ويقلص منها البعض من عاد من الخلق من بينهم تقصاصات أحيانا ؟ وقد سألت بعض المشرفين عن ذلك ، فقالوا ان الرقوق المصورة وأجهزة العرض موجودة بالفعل ، ولكن القراء يتحون على رغبتهم في العثور على بغيتهم من الجرائد نفسها ، ونحن مضطرون لتلبية رغباتهم . وقلت في نفسي لعل الدافع الى ذلك قلة الكوادر العاملة على الأجهزة مما يجعل القارئ مضطرا الى انتظار طويل . ولذلك فانه يفضل مطالعة الجريدة نفسها بالرغم مما في ذلك من مخاطر بالنسبة لصيانتها . كما تساءلت عما اذا لم يكن من الممكن طوال السنوات الماضية اعادة طبع كل الجرائد الموجودة في المكتبات بمئات النسخ بالأوفسيت وتوزيعها على المكتبات العامة داخل القطر وخارجه والاحتفاظ بالنسخة الأصلية بعيدة عن متناول الأيدي سالمة من كل سوء . كنزاً ثمينا كآثار المتاحف يمكن النظر اليها والتفرس فيها دون لمس ورقة منها . ولم يكن ما رأيت حال جريدة (الرقيب) وحدها التي تعود الى ثمانين عاما خلت ، فقد أبصرت بين يدي أحد القراء مجلدا من جريدة (لواء الاستقلال) الصادرة في الأربعينيات ، كما ناولتني المناولة . خطأ . جريدة (الرقيب) البغدادية أيضا والصادرة كزميلتها لواء الاستقلال في الأربعينيات أيضا . فوجدتهما ليستا أحسن حالا بكثير من (رقيب) العقد الأول من هذا القرن . فيا لتعاسة أمر الحفاظ على التراث عندنا !

(٦) هكذا في الأصل . والصحيح : فلتة من فلتات الزمن التي عقمت عن مثلها الأيام .

(٧) هذه المقدمة بقلم المرحوم فتح الله اسعد الكوبي الذي سنعود للاستشهاد برأيه في تحديد سنة ميلاد الشاعر بعد قليل .

(٨) ليست هناك ضرورة في أن يكون ميلاد الشاعر في العام ١٢٥٨ للهجرة (١٨٤٢ – ١٨٤٣) اذا كان قد توفي عن عمر ناهز السبعين عاما ، ما دام قد توفي في العام ١٣٢٨ (١٩١٠) ذلك أن (ناهزه) تعني (دانا) ، وهذه المدانأة تتحقق حتى مع وجود فرق قدره سنتان أو ثلاث أيضا عن بلوغ السبعين بالفعل . ولكن اذا صح أنه ناهز السبعين فعلا ، فذلك يعني أن بين الآراء التي حددت سنة ولادته ، تكون تلك التي حددتها بأحد العامين ١٢٥٧ و ١٢٥٨ (١٨٤١ – ١٨٤٣) اقربها الى التطابق مع ما ذكرته الجريدة .

(٩) لم يشر كاتب المقال الى ما كتبه فتح الله أسعد عن سنة ميلاد الشاعر . وعند رجوعي الى مقدمة الديوان المشار اليها وجدت أنه حدد السنة ١٢٥٣ للهجرة (١٨٣٧ – ١٨٣٨) . وهي السنة نفسها التي توصل اليها والدي الملا عبد الكريم المدرس نتيجة تحقيقات أجراها في الموضوع قبل سنين مع بعض المطلعين من مشايخ الأسرة الطالبانية في كركوك .

(١٠) لم يعش الشيخ الطالباني أكثر من سبعين عاما على ما ذهب اليه فتح الله اسعد بناء على تحليل الكاتب ، فهو قد حدد نصا سنتي ميلاده ووفاته وان اخطأ بالتأكيد في الثانية سواء أخذنا الهجرية أم الميلادية (ذكر أنه ولد في السنة ١٢٥٣ للهجرة وتوفي في السنة ١٣٢٧ (١٩٠٩) راجع مقدمة الطبعة الثانية لديوان الشيخ رضا الطالباني في الصفحتين «ب» و «د») ، ذلك لأنه – أي الشيخ رضا – توفي في الأيام الأولى للعامين ١٣٢٨ و ١٩١٠ ، فضلا عن أنه اذا حسبنا سنوات عمره بالميلادية خدعت أقل مما تبادره وفق السنة الهجرية . ومع هذا الي أرجح ما ذهب اليه الأخ عبد الرزاق بيار من أن الشاعر عاش أكثر من سبعين عاما وأرجح أنه ناهز الثمانين . في أحد أبياته يصرح الشاعر بالقول : «عمري بلغ الثمانين . . الخ» (أنظر الصفحة ٦٧ من الطبعة الثانية لديوان الشاعر) .

(١١) راجع : ديوان الشيخ رضا الطالباني ، الطبعة الثانية ، بغداد ، ١٩٤٦ ، الصفحة ٢٥٣ .

(١٢) ذكر لي والدي الملا عبد الكريم المدرس أن المرحوم الشيخ حبيب الطالباني ، وكان من أدق شعر الشيخ رضا وحفظته المتمكنين منه ومن المطلعين على مناسبات نظمه ، كان يتحدث كثيرا عن (عطاء الله الخطيب) كواحد من فضلاء بغداد في عصره ومن أصدقاء الشاعر الصادقين . ولم يتسن لي المجال بمزيد الأسف للبحث عنه في معاجم شعراء بغداد . ولعل لي عودة اليه في فرصة أخرى .

○